

حروف حرة

العدد الثامن، أكتوبر 2021

مجلة شهرية تصدر عن جمعية تونس الفتاة

المثقف على تخوم الجنون:
قراءة في "دفاتر الوراق"
لجلال برجس

كيف أفشلت الأنثروبولوجيا
الغزو الأمريكي لأفغانستان؟

العمامة العلمانية:

أحمد القبانجي... رحلة بين ثورتين

توكفيل في السونتر. فيل:
قراءة في العشرية الديمقراطية التونسية
(الجزء الثاني)

ثورة 2011 وانقشاع الأوهام (الجزء الثاني)

ابن خلدون والوعي بالتحولات الحضارية
الكبرى: آثار الطاعون الأسود نموذجاً

إذا انتحر عبدُ فلن يقع عتاب على سيّده:
قراءة في معاني الانتحار

قراءة في هذا العدد

العمامة العلمانية: أحمد القبانجي... رحلة بين ثورتين ص. 3

أنيس عكروتي

كيف أفشلت الأنثروبولوجيا الغزو الأمريكي لأفغانستان؟ ص. 4-5

خليل العربي

ثورة 2011 وانقشاع الأوهام (الجزء الثاني) ص. 6-7

حمزة عمر

توكفيل في السونتر- فيل: قراءة في العشرية الديمقراطية التونسية (الجزء الثاني) ص. 8-9

عماد قيده

إذا انتحر عبدٌ فلن يقع عتاب على سيّده: قراءة في معاني الانتحار ص. 10-11

سها غابري

ابن خلدون والوعي بالتحوّلات الحضارية الكبرى: آثار الطاعون الأسود نموذجاً ص. 12-13

فهمي رمضاني

المثقف على تخوم الجنون: قراءة في "دفاتر الوراق" لجلال برجس ص. 14-15

أسماء سحبابي



التصميم

حمزة عمر

صورة الغلاف

لوحة "حرق الذات" لناناليا أندروشيوا

للتواصل معنا

redaction@tounesaf.org

رئيس التحرير

حمزة عمر

فريق التحرير

أنيس عكروتي

خلود الخماسي

خولة القاسمي

فهمي رمضاني

هشام الزعبي

حروف حرة

مجلة شهرية تصدر عن

جمعية تونس الفتاة

تأسست في مارس 2021

العمامة العلمانية:

أحمد القبانجي... رحلة بين ثورتين



بقلم: أنيس عكروتي

عضو مؤسس لجمعية تونس الفتاة

مهندس بيولوجي

باحث في شؤون الجماعات الجهادية

anis@tounesaf.org



الدول العربية، يخوض اليوم القبانجي معارك من نوع آخر فهو الذي يشن حرباً بلا هوادة على الإسلام التقليدي الأصولي بأحزابه وشخصياته الدينية ونظمه الثيوقراطية، ويحمل هذا التيار مسؤولية لفظ عدد كبير من الشباب للإسلام رفضاً منهم للاستبداد الديني وفرض غمط مجتمعي منغلق.

ويقول في إحدى محاضراته أنه: "لا يزال مع جوهر الثورة وحلمها، لكن الجمهورية الإسلامية فشلت في تحقيق حلم الثورة ورسالتها، وهي تقدم الآن إسلاماً فارغاً المحتوى، فهي لم تحدث تغييراً في روح الإنسان بل انسأقت مع قشور وركزت على القضايا الشكلية مثل الحجاب، اللحي، منع الخمر، أما جوهر الإنسان فقد انسحق في خضم الصراع على السلطة وتنامي الاستبداد."

خلق طيف القبانجي في سماء النجف وكربلاء إحدى أبرز قلاع المؤسسة الدينية الشيعية حين تظاهر الشباب العراقي رفضاً للإسلام السياسي ولفشل الأحزاب الدينية في بناء دولة قادرة على النهوض بالبلد، حتى أن إحدى المظاهرات في النجف الأشرف رفعت لافتة تحمل دعوة لقيام دولة علمانية!!

القبانجي بأفكاره الجريئة وتجاوزه لمربّع الاجتهاد والتجديد الديني، يثير جدلاً متواصلاً في وسائل التواصل الاجتماعي، وهو تجسّد لالتقاء المفارقات فكما نجد فيه الفيلسوف ابن رشد بعقلانيته نجد فيه الشيخ محي الدين ابن عربي بعرفانيته فضلاً عن شكله الشبيه برجال الدين وأفكاره العلمانية.

فهل ما يطرحه القبانجي من أفكار يساعدنا على بناء جسور متماسكة بين الدين كمكوّن ثقافي مهمّ والعلمانية كضمانة لبناء مواطنة حقيقية؟ وهل أن أفكاره تساهم فعلاً في الانتقال من مواطنة دينية منغلقة على الآخر إلى مواطنة مدنية تستوعب الجميع؟

"خلافة الإمام علي بالنص أو بالنصب" أن صهر النبي والشخصية المحورية في التشيع الإمامي لا يتمتع بأيّ أفضلية على بقية الصحابة في خلافة محمد. كما يعتبر أن الإسلام الذي يرى نفسه فيه ليس "ديناً ودولة" (العبارة التي نُقلت على مؤسس الإخوان المسلمين والتي تلخص الانصهار بين الدين والسياسة) فكل ما يخص شكل نظام الحكم ومضمونه هو أمر دنيوي يتدبره الناس ولا علاقة له بالدين.

هذه أفكار تصدر عن شخص هو ابن المؤسسات الدينية التقليدية الشيعية وممن انخرطوا مبكراً في الدفاع عن أفكار الإمام الخميني ودولة الولي الفقيه. فالقبانجي الذي غادر العراق متوجّهاً إلى إيران، قاتل سابقاً ضمن صفوف فيلق بدر إلى جانب القوات الإيرانية ضد قوات بلده العراق خلال حرب الخليج الأولى وكان عضواً نشيطاً في الباسيج (قوات التعبئة الإيرانية).

من المفارقات أن "إيران الثورة"، التي لجأ إليها هرباً من "جحيم البعث" والتي تمثّل في نظره الجمهورية الإسلامية النقيّة أو "حلم الأنبياء" كما وصفها محمد باقر الصدر أحد أبرز مراجع الإسلام السياسي بشقيّه الشيعي والسني، اعتقلت القبانجي سنة 2013 قبل أن يتم الإفراج عنه بضغط شعبي عراقي.

بعد سنوات خاض فيها عدّة معارك وقاتل ببسالة لإعلاء راية الثورة الإسلامية وتصديرها إلى بلده وبقية

منذ عشر سنوات، انتظمت سلسلة من المحاضرات في إطار "مجلس ولي عهد أبو ظبي محمد بن زايد" خلال شهر رمضان وكان ضيف الليلة الثالثة استثنائياً: رجل محمّل بمجموعة من الثنائيات المتصارعة، يرتدي زيّ رجل دين شيعي بعمامة سوداء في دلالة على اتصاله بنسب الرسول محمد ولكنّ أفكاره تقطع مع الإسلام التراثي الأصولي، إسلام ينظر إليه كعائق حقيقي أمام بناء دولة علمانية ليبرالية تساوي بين جميع مواطنيها ولا تفاضل بين أحد وأحد على أساس الدين والمذهب والعرق والجنس والميول الجنسيّة الخ..

ما يدعو إليه القبانجي ربّما يتمّ تفهّمه أو على الأقل لا يثير الاستغراب عندما يصدر عن سياسي أو مفكر لا يوحى مظهره الخارجي بأيّ علاقة بالتدين الشكلي، لكن أن يأتي على لسان شيخ معّم فهذا يثير جدلاً كبيراً وربّما تعتبره شخصيات دينيّة تقليديّة بمثابة الطعنة في الظهر خاصّة أن القبانجي سليل عائلة دينية معروفة وخريج الحوزة العلمية في النجف الأشرف، بل أن أخاه صدر الدين القبانجي إمام جمعة النجف أفتى بأن أفكاره ضالّة وأنه "منحرف العقيدة والفكر".

العداء المعلن بين زعيم التيار الليبرالي الإسلامي والحوزات أمر مفهوم، فالقبانجي إلى جانب إيمانه بقيم العلمانية والمواطنة فإنّه يركّز بشكل كبير في أفكاره على نقد العقل التراثي الشيعي الإمامي. فهو يصرّح في كتابه

هذه أفكار تصدر عن

شخص هو ابن

المؤسسات الدينية

التقليدية الشيعية

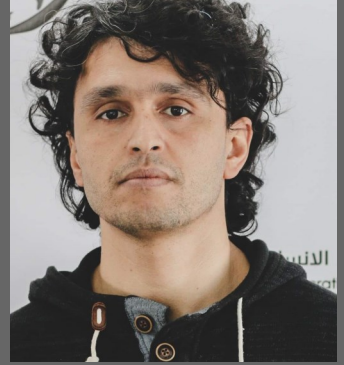
وممن انخرطوا مبكراً

في الدفاع عن أفكار

الإمام الخميني ودولة

الولي الفقيه

كيف أفشلت الأنثروبولوجيا الغزو الأمريكي لأفغانستان؟



بقلم: خليل العربي

دكتور في القانون العام والعلوم السياسية

khalilarbi2018@gmail.com

القرار السياسي في بيروقراطية الحكم في أمريكا، قدم التحليل النفسي لشخصية جورج بوش الابن عنصر سردي الخلاص الديني التي شحنت خطابه وقراراته.² تشير الدراسات إلى أنها حالة نفسية يعيشها جل الأمريكيين في منتصف العمر. وقد وجهت قرارات بوش الابن باعتبارها قرارات "دينية" ذات نهاية سعيدة بالضرورة، هي بدورها وراء قرار غزو العراق لإنهاء حكم عدو أبيه. حين اجتاحت القوات الأمريكية العراق، أصبح الملف الأفغاني هامشياً بالنسبة إليه. وقد ورد في إحدى المراسلات الإدارية الداخلية لرامسفيلد أنه سأل جورج بوش الابن إن كان يريد لقاء الجنرال ماكينيل. قال الرئيس: من هو الجنرال ماكينيل؟ إنه قائد العمليات في أفغانستان، رد رامسفيلد، إذن، لا أريد رؤيته، قال بوش. لقد نسيه تماماً كما نسي أفغانستان.

أصبحت أفغانستان حرباً منتصرة وقد حرص الخطاب الرسمي على تكرار ذلك بعنفوان المؤمنين الحتمي رغم أن الشك كان يساورهم دائماً. وكان صوت الجنرالات والعسكريين من كابول مقلقا كصوت الشيطان. فتحالفوا على الكذب على الشعب الأمريكي والعالم. ولم يتحل أي منهم بالجرأة لإنهاء حالة الهذيان والنكران رغم أن دموع العائلات الأمريكية من الطبقات المتوسطة ومتعددة العرقيات طالبت بإنقاذ أبنائهم من أنون حرب بنهاية مفتوحة. بينما من يقررون بشأنها احتماوا بمعابدهم البيروقراطية والعسكرية.

ما يشد الإنتباه أكثر هو "فتاوى" الدراسات التي رافقت الحرب. أورد آدم بازكو وجيل دورونسورو في جريدة لوموند في عددها الصادر في سبتمبر 2021، أن الأنثروبولوجيا الخيالية عن أفغانستان ضربت في

المسجون. فقد بدأت حينها "المرحلة الأيديولوجية" كما صرح أحد الجنرالات عندما أصبح جورج بوش الابن ورامسفيلد يتحدثان عن تقديم الحرية والديمقراطية للأفغان بديلاً عن الإرهاب. لكن في الواقع، كانت الإدارة الأمريكية تعيش تخبطاً وخوفاً من التحولات القادمة. فلم تكن هناك استراتيجية كاملة تضمن أن الخيارات المتبناة عفوية وحسب الأحداث ستؤدي فعلاً إلى تحقيق بنك أهداف متغير دائماً. من الطرائف المأساوية والسوداوية أن دونالد رامسفيلد طلب سنة 2002 من مستشاره الذي وصفه الجنرالات بأنه "أغبي شخص على وجه الأرض" تقديم وثيقة استراتيجية خلال أربع ساعات وتقديمها له على طاولة الغداء. نعم، هي حرب أفراد أقوياء لكن أغبياء ذهب ضحيتها 2300 جندي قتل و26000 جندي جريح و46000 جندي أفغاني مع أكثر من 70 ألف من المدنيين لن يحاسب قتلهم.

كان كل من القرار السياسي واليد القابضة على السلاح مرتعشين لكن منتشين بانتصارات أولى، إذ استجاباً لوجدان أمريكي مجروح بعد الحادي عشر من سبتمبر. كل مرة يُجرح فيها غرور القوة الأمريكية تقوم بحرب أخرى. بعد يومين من الاعتداء على القوات الأمريكية في بيروت في 23 أكتوبر 1983، قرر الرئيس ريغن غزو غرينادا. تداوي أمريكا غرورها

المجروح عسكرياً بحروب أكثر. في أفغانستان، ثمة عناصر أخرى جديدة ضاعفت من هذا الغرور وأعطته بعداً دينياً جديداً. فعلاوة على الارتجال العسكري المبني على التكتيكات دون استراتيجية وعلى

عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر، أطلق جورج بوش الابن حربه في أفغانستان. وتواصلت إلى حدود انسحاب آخر جندي يوم 30 أوت 2021. أجمع الكل على أنه انسحاب مهين يشبه إلى حد بعيد تجربة القوات الأمريكية في فيتنام. وقد تشابهت الوقائع والصور المتداولة عنها. وهزّت العالم تفاصيلها الإنسانية كما أثرت عميقاً في الوجدان الأمريكي.

في كتابه الصادر حديثاً،¹ أعاد الكاتب كريغ ويتلوك عرض قصة الحرب المدمرة انطلاقاً من وثائق ومصادر رسمية لم يكن يُتوقع نشرها. وقد لخص عبرها تخبط السياسيين والجنرالات الأمريكيين في بدايات الحرب. فبعد أن كان صوت دونالد رامسفيلد يتردد بنبوة الانتصار انتهى بعد سنتين إلى القول بأنه لم يعد يعرف من هو الشرير هناك لقتاله. كانت استراتيجية الحرب غائبة تماماً في أفغانستان. وقد ردّد العسكريون طويلاً ذلك، وجاء في شهاداتهم جميعاً أنهم لم يكونوا يعرفون ماذا بعد ومتى يخرجون من هناك. لم يكن الجندي الأمريكي يعرف حتى متى سيستحم. قال أحد الجنود أنه لم يستحم إلا بعد شهر كامل من وصوله بعد أن نام في العراء في باغرام. ومن المفارقة أن الأخيرة تحولت تدريجياً إلى أكبر قاعدة هناك بإمدادات يتم إرسال الحد الأدنى منها في كل مرة.

دفعت نشوة الانتصار في البداية إلى تجاهل حركة طالبان تماماً في المفاوضات التي تم إطلاقها حول مستقبل أفغانستان. وهو ما اعتبره الأخضر الإبراهيمي خطأ جسيماً للمحافظين الجدد الذين اعتبروا أن الطالباني الجيد هو المليت أو

أصبحت أفغانستان

حرباً منتصرة وقد

حرص الخطاب

الرسمي على تكرار

ذلك بعنفوان المؤمنين

الحتمي رغم أن الشك

كان يساورهم دائماً

أصبح المركز الأفغاني

كانتونات غربية

وأفغانية متحالفة معها

مغلقة على محيطها

الخارجي

الهوامش

¹Craig Whitlock, *The Afghanistan Papers: A Secret History of the War*, New York, Simon and Shuster, 2021.

²D. P. Mc Adams, « Redemptive narratives in the life and the presidency of George W Bush », in C. Strozier, D. Offer, O. Abdyli (eds.), *The Leader : Psychological essays*, New York, Springer, 2011, pp. 135-136 and p. 145.

³ورد بـ:

Robert D. Crews, *Afghan Modern, The history of a global nation*, Cambridge HUP, 2015, p3.

⁴ Wendy James, « The anthropologist as a reluctant imperialist », in Talal Asad (eds.), *Anthropology and the colonial encounter*, London, Ithaca Press, 1973, pp. 42-49.

اتجاه المركزي. كانت العلاقة بينهما إشكالية. فمن يستفيد محليا أصبح يبحث عن موضع له في كابول. وهو ما أدى إلى انتشار الفساد والمحسوبية. لم يخلق ذلك ارتباطا مباشرا مع الدولة الجديدة على أساس انتماء موحد، بل أصبح المحلي واسطة لاكتساب قوة قرار وتأثير. وعاد معها العنصر الإثني والعرقى بشكل آخر أكثر سلبية. أصبح المركز الأفغاني كانتونات غربية وأفغانية متحالفة معها مغلقة على محيطها الخارجي. كانت الصلة به تتكون بالمال الغربي الذي يضخ في مشروع البناء المستورد.

تواصل ذلك طيلة عشرين سنة في الوقت الذي بنت فيه حركة طالبان شبكة علاقات مع القبائل والإثنيات والمذاهب الأخرى، بل أضافتهم إلى مجلس شوراها. كما أعادت تركيز شبكة محاكم وحضور أمني محكم مع تغيير في المعاملة مع الأفغان بعد تطوير استراتيجيتها العسكرية. لا يعني أن طالبان تعد بدولة حديثة وحقوق إنسان كونية لكنها استوعبت منطقها وأحسن اللعب على خيوط هذه المفاهيم الشفافة مع الواقع...

في وقت ما كانت الأنثروبولوجيا أداة استعمارية أو كان الأنثروبولوجيون "امبراليين مترددين"، على حد عبارة ويندي جيمس، في طريق تحرير العقل العلمي وحقل معرفي كامل من السلطة وشبكة هيمنتها بعد الحروب العالمية.⁴ وتعال أيضاً أصوات متحررة من المستعمرين سابقا. رغم ذلك، لا يزال تحرير الإنسان نفسه والمعرفة به مهمة عسيرة برجع صيغ عنه قديمة وسلطوية ميتافيزيقية تتحالف مع هيمنة العالم الحديث.



المصدر: AP Photo/David Guttenfelder

على غط العاصمة واشنطن. في المقابل، كان هناك شعور بأنهم يتعاملون مع شيء موجود فعلا وله طبيعته وخصائصه. كان الانخراط في مهمة التمدين المدعومة من المحافظين الجدد وتصوراتهم متكتنا أكثر على غرور القوة وما يعطيه من صورة مشوهة عن الواقع. قال أحد مسؤولي الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية (USAID): "كان من الأسهل ألا يوجد شيء هناك، كان علينا تدمير ما يوجد هناك لنبداً البناء". لم تبدأ الولايات المتحدة مما يوجد فعلا في أفغانستان، ككل محتل، بل انطلقت من تصوراتها البدائية المعززة لمصالح سياسيها ولوبياتها.

بالإضافة إلى ضرورات العمل العسكري ميدانيا برزت هذه التصورات عن المجتمع الأفغاني شبكة العلاقات الجديدة مع عناصر المجتمع الموجودة. تدخل العسكريون في النزاعات العائلية والقبلية لكسب أنصار لكنهم خلقوا عداوات وخلافات جديدة. وقد أدى ذلك إلى تعارض بين ما هو قائم وما هو جديد قيد البناء. أصبح المحلي الذي يستفيد من القوة العسكرية الأمريكية والأفغانية يسعى إلى اختراق ما يتم بناؤه في المركز. وهو مستوى من التأثير والتدخل غير المحسوب في بنية المجتمع وطبيعته. ضمن هذا السياق، أصبحت أفغانستان تعيش توجهاً متعاكسين. في اتجاه المحلي وآخر في

مقتل قرار الحرب ومشروع البناء لاحقا. كانت التقارير الإستشارية تُكتب من طلبة الماجستير والإجازة في العلوم الإنسانية ولم يكن بينهم أنثروبولوجيون في الحقيقة. أوصت هذه التقارير بالتوجه إلى المحلي في فضاء غير دولتي وغير معتاد على حضور الدولة. لم تكن هذه الملاحظات دقيقة بل غالطت الدراسات التاريخية والتحول التي يعرفها المجتمع الأفغاني. كانت أنثروبولوجيا خيالية، على حد عبارة الصحفيين.

ليست هذه الأنثروبولوجيا الخيالية إلا صدى الأنثروبولوجيا الاستعمارية القديمة. كُتبت بذلك الأحكام الدونية عن الشعوب غير الغربية باعتبارها شعوبا غير قادرة على بناء نموذج الدولة والمجتمع الحديثين. يقول الإثنولوجي الفرنسي جاييس دارمستيتز: "الأفغان ليس لهم تاريخ كما الفوضى ليس لها تاريخ".³ عمق الإعلام والخطاب السياسي هذه الصورة عن أفغانستان إلى مستوى يجعلنا نتخيل بلدا أسطوريا خارج معايير الزمان والمكان التي نعهدها؛ بلد مغلق، سكانه مختلفون مستقرون في مكانهم وثقافتهم، رافضين للأجانب، أعلى أماط السيادة والسلطة التي عرفوها هي سلطة القبيلة... انخرطت السياسة الأمريكية في مشروع بناء الدولة والأمة الأفغانية بمنطق وصاية ومهمة متدين. كان الهدف بناؤهما

ثورة 2011 وانقشاع الأوهام (الجزء الثاني)



بقلم: حمزة عمر

رئيس جمعية تونس الفتاة

hamza@tounesaf.org

تغيير في النظام السياسي بمفرده ذا معنى. ما الذي يعنيه عمليا في الواقع اليومي للأشخاص كون النظام برلمانيا أو رئاسيا إذا كانت لا يمكن أن تقضى حوائجك إلا إذا كنت تعرف فلانا أو أعطيت فلتانا قهوته؟

في عقده الاجتماعي، يدافع جون جاك روسو بحماسة عن النظام الديمقراطي المباشر. لكنه كذلك يعترف أن هذا النظام لا يمكن أن يقوم دون مواطنين من ذوي الفضيلة ممن يتفانون لأجل المصلحة العامة. ويقرّ روسو "إذا كان هناك شعب من الآلهة، فيمكن أن يحكم نفسه ديمقراطيا. إن حكما يمثل هذه المثالية لا يصلح للبشر".

لنتأمل في حال الفضيلة والمصلحة العامة عندنا ويمكن حينها أن نتبين ولو قليلا لما آل الحال إلى ما هو عليه. ليست الانتخابات إلا آلية تقنية لتجسيد الديمقراطية. أما روح الديمقراطية، فتقع في الأفراد أنفسهم الذين يمارسونها. إذا كنا نربينا على الفساد والاثرة ورفض الاختلاف وفرض الآراء بالقوة وإذا كنا في واقعنا لا نلتزم بالطواير ولا يحترم بعضنا بعضا ونلقي القمامة على قارعة الطريق ولا نتقيد بقواعد المرور ونتهرب من الضرائب، لماذا نتصور أن مجموع أصواتنا ستنتج أفضل ممّا نحن عليه؟

إن الشعب ليس كائنًا مقدسًا ليتعالى على التفكيك والنقد. كان من أوكد ما ينبغي أن نقوم به بعد الثورة أن نكتب على دراسة المسائل التالية: لم نحن على ما نحن عليه الآن؟ ما الذي نطمح أن

من سقوط نظام كان على مدى نصف قرن يقوم على حكم الفرد. لا الشعب ولا الطبقة السياسية كانا جاهزين لذلك. كان من الطبيعي أن من حاز على الأغلبية حينها لن يرى فيها سوى فرصة من السماء لممارسة السلطة، دون أن يأبه بمستقبل البلاد. وفي الحقيقة، المسار نحو انتخابات مجلس وطني تأسيسي أملاه اعتصاما القصة، اللذين ناديا كذلك بنظام برلماني، هو نفسه الآن ما يسعى "الشعب" (أو على الأقل من يزعم تمثيله) إلى إبداله بنظام رئاسي.

عكس ما يدّعيه الشعبويون، الشعب لا يعرف ماذا يريد. مباشرة بعد ثورة من المفروض أنها ترفع شعار العدالة الاجتماعية، اتّجه الشعب إلى انتخاب أكثر الأحزاب رسوخا في الرأسمالية والمحافظات (النهضة). بعد ذلك بثلاث سنوات، انتخب شعب الثورة الحزب الذي جمع أكثر عدد من ممثلي النظام السابق الذي استهدفته الثورة (نداء تونس). كيف يمكن الركون إلى نزعات شعب شّهال بذاك؟

نحن لا نريد أن ننظر إلى أنفسنا في المرأة. ليس من حكمونا طوال السنين السابقة سوى صورة عتّا. ربّما كنّا نطمح إلى أن يكونون خيرا ممّا ليقودونا إلى الجنة بالسلاسل، ولكنّا في النهاية لم نصب إلّا ما نستحقّه. في ظلّ ما نحن عليه، لن يكون أيّ

لما ترشّح يوسف الصديق لانتخابات المجلس الوطني التأسيسي في 2011، صرّح آنذاك بما معناه أن المجلس يجب أن يضمّ الفلاسفة والمؤرّخين وعلماء الاجتماع وغيرهم قصد بناء مشروع مجتمعي متكامل، لا أن يظلّ حجرة لنقاشات تقنية بحتة.

لم ينجح يوسف الصديق في الحصول على مقعد في المجلس، هذه المؤسسة التي كانت أبعد ما يكون عن فضاء لنقاش هادئ وعميق حول ما نودّ أن نفعله بثورتنا، بل كانت ساحة للمغالبة السياسية انتهت أغلب الوقت بتوافقات عرجاء تخرج منها جميع الأطراف راضية دون أن يكون هناك فعلا فهم موحد لمضمونها. ما الذي يعنيه مثلا الإقرار بدين للدولة في فصل والقول بمدنيّتها في الفصل الذي يليه؟ ما الذي يعنيه ضمان حرية الضمير وتنصيب الدولة حامية للمقدّسات في نفس الفصل؟

لا يعني ذلك بالضرورة أن دستور 2014 نصّ رديء. ربّما لو قيّضت له محكمة دستورية تؤوّل المتشابه منه وتفصل في النزاعات حوله لكان أفضل حالا ولما وصلنا إلى تعليقه الفعلي الآن. لكنّ هذا لا ينفي أنه وُلد مع عيب أصلي: أنه لم يكن فعلا تعبيراً عن رغبة في البناء المشترك.

ربّما كان من العسير تصوّر نتيجة أفضل من مجلس انتُخب أعضاؤه بشكل مباشر بعد تسعة أشهر فقط

»

عكس ما يدّعيه

الشعبويون،

الشعب لا يعرف

ماذا يريد

«



المصدر: فتحي بلعيد/AFP

لا نَظَنَ أَنَّ تَغْيِيرَ النِّظَامِ

الانتخابي أو النظام

السياسي يمكن أن يشكّل

حلًا حقيقيًا. يجب أن

تتجه المقاربة إلى ما يمكن

أن يغيّر جذريًا العلاقة بين

المواطنين فيما بينهم

وبينهم وبين الدولة

المواطنين فيما بينهم وبين الدولة بحيث تضحي المصلحة العامة شأن الجميع دون استثناء. نرى أنه يمكن واقعيًا العمل على ذلك من خلال العمل على تغيير منظومتين أولاهما من شأنها أن تحوّل هذه العلاقة في المدى المتوسط وثانيهما تحويلها في المدى البعيد. نعني بالأولى المنظومة الجبائية التي يجدر تغييرها من خلال إلغاء مظاهر التمييز فيها (وأبرزها الخصم على المورد) لتكريس مفهوم المواطن دافع الضرائب الذي من حقّه أن يرفع صوته عاليًا للمطالبة بالخدمات التي يمولها من جيبه. أمّا الثانية فهي المنظومة التربوية التي يجب إصلاحها في اتجاه تخريج جيل جديد ممّن يربّون منذ نعومة أظفارهم على قيم المواطنة والحرية والمساواة. والحديث يطول في إصلاح هذين المنظومتين....

على تنفيذ إرادته كما هي، بينما الشعب في الحقيقة شديد التنوع وقابل للتطور دائمًا بما يسمح أن يكون دور الساسة هو صنع هذه الإرادة. وحتى الآلية التي يقترحها الرئيس لتنفيذ مشروعه لا تعدو أن تكون تعويض آلية الانتخاب على مستوى دوائر جهوية بانتخاب على مستوى دوائر محلية يصعد على إثرها الممثلون إلى المستوى الجهوي والوطني عن طريق القرعة. إذا كان النخبون هم أنفسهم في جميع الحالات، بكلّ الممارسات سابقة الذكر التي تصدر عنهم، كيف يمكن أن نأمل في نتائج أفضل فقط لأننا صغّرنا حجم الدوائر الانتخابية؟

لا نَظَنَ أَنَّ تَغْيِيرَ النِّظَامِ الانتخابي أو النظام السياسي يمكن أن يشكّل حلًا حقيقيًا. يجب أن تتجه المقاربة إلى ما يمكن أن يغيّر جذريًا العلاقة بين

نكونه؟ وكيف السبيل إلى أن نكون كذلك؟ وكان المفروض أن يكون المجال للمفكرين والفلاسفة والباحثين في العلوم الإنسانية والاجتماعية للتعمّق في كلّ ذلك. ما فعلناه في الحقيقة هو أن استسلمنا "العريضة الضوواء وتشجّج الهويات" حسب عبارة أحمد ونيس، فأضحي المهزّجون الذي تقدّمهم لنا وسائل الإعلام ويظهرون كالفقاع في وسائل التواصل الاجتماعي هم قادة الرأي في البلاد.

ربّما يحيل صعود قيس سعيّد إلى سدة الرئاسة إلى رغبة شعبية في تجاوز كلّ مظاهر السقوط الذي نعيشه بما يحيل إليه الرجل من تسام أخلاقي¹. لكنّ المشكل يكمن في رؤيته للشعب والمشروع الذي يتوجّه به إليه. الشعب في نظر قيس سعيّد مفهوم جامد ومكتمل يكاد ينحصر في أبناء الأحياء الشعبية والمهمّشين ويقتصر دور الساسة

¹ انظر مقالنا: "لماذا نجح قيس سعيّد بهذه الفصحي؟"، حروف حرة، العدد الأول، مارس 2021، ص.7.

توكفيل في السونتر- فيل

قراءة في العشرية الديمقراطية التونسية (الجزء الثاني)

مفكرة وحرّة وحاملة لهمّ إنساني وقدرة على التعبير عن فلسفته والمرور إلى الفعل المباشر، لا أن يكون مجرد إنسان مأجور "ضاح بالمعلومات"، مترفع عن هموم طلابه وزملائه داخل أسوار الجامعة وخارجها.

2 - الطالب: لا يكفي طالب العلم أن يضع نصب عينيه الشهادة التي تنتظره بعد سنوات الدراسة والتي ستؤمّن له الوظيفة المستقبلية. تفرّخ الجامعة كل سنة جيلا من الخبراء في شتى المجالات، لكنهم يقعون أناس سلبين لا يمكنهم الدخول في أي مجادلة تقع خارج تخصصهم. ويكفيها التمتع بالخارطة الفكرية الحالية وحتى ماض قريب لنجد أن أغلب المثقفين ورجال الفكر المؤثرين بالفعل في صفوف الجماهير وحتى على مستوى صنع القرار السياسي هم في الأصل من اختصاصات علمية ضيقة، واختاروا أن يكونوا أصواتا حرة تغرّد خارج الأفق الضيق للبحث العلمي وتدرّسه ومراكمته، ويؤثروا حتى بالنز القليل في المجال العام خارج الجامعة، ولعلنا كأبرز أمثلة عن هؤلاء نذكر الأمريكي نعيم تشومسكي (منظر اللسانيات) والفرنسي موران (عالم الاجتماع) والأمريكي دافيد غريير (الانثروبولوجي) والسلوفيني جيبيك (أستاذ الفلسفة) وادوارد سعيد (الناقد الأدبي).

أخطر ما قد يقع فيه الطالب هو تبني التعريف الأفلاطوني للمثقف وهو الذي صاغه المفكر جولييان بيندا كالآتي: "هم هؤلاء الذي لا ينحصر نشاطهم بالدرجة الأولى في ملاحقة الأهداف العملية، ويسعون إلى مسرتهم في ممارسة فن أو علم ما أو تأمل غير علمي، باختصار في امتلاك مزاي غير مادية. ولهذا السبب يقولون بطريقة محددة: مملكتي ليست في هذا العالم"²

فالمقاربة الصحية إذن في التعامل مع الجامعة كفضاء عام، بالنسبة للمدرس كما الطالب، هي أن يرى كل فرد من هؤلاء في

1 - المدرّس: يمارس الأستاذ الجامعي الديمقراطية داخل الجامعة حين يتجرّد قبل كل شيء من عقلية الفوقية العلمية والرتبية في معاملاته مع طلبته وزملائه، فضلا عن فسح المجال للنقاش في القضايا المعرفية التي يدرسها في مدرجه، أو غيرها من القضايا العامة التي تطرح في الندوات أو حتى في التجمعات احتجاجية كانت أم احتفالية، في ساحات الكلية. بممارسته لهذه القيم، يرتقي المدرس من كونه موظف بأجر أو كسّلت له مهمة تدوير معارف وتقنيات دقيقة ضمن حقل معرفي معين، ليكتسب صفة المثقف الذي يتفاعل بطريقة جدلية مع ذوات واعية ومفكرة أخرى داخل الحرم، بغضّ النظر عن موقعها من السلم الوظيفي أو تخصصها.

في ورقتها البحثية بعنوان "المثقف في الجامعة، لماذا يجب علينا أن نقرأ الماضي؟"¹ تضرب لنا الباحثة المصرية شيرين أبو النجا مثلا من سنة 1940 حيث دخل الأستاذ الهولندي المتخصص في القانون المدني والتجاري رودولف كليفرنخا إلى قاعة الدرس وألقى خطابا ناريا منددا بممارسات القوات الألمانية تجاه زملائه من الأساتذة اليهود، حيث لم يأت المساء إلا وقد طبعت المحاضرة بأعداد كبيرة ووزعت على الطلاب وعلى غيرهم، ما أدى بالأستاذ المذكور للاعتقال، وهو ما زاد وتيرة الاحتجاجات والمقاومة إلى أن تم غلق جامعة لايدن تماما. بعد ثلاثين عاما، تم إنشاء كرسي كليفرنخا الذي يعنى بتكريم الأساتذة ذوي الإسهامات المرموقة في مجال الحرية الأكاديمية والبحث العلم (وكان نصر حامد أبو زيد أحدهم)

تساءلت الباحثة: ماذا لو لزم كليفرنخا الصمت؟

فالأستاذ الجامعي الذي يزعم أنه ديمقراطي يتوجب عليه أن يكون ذاتا

تناول الجزء الأول من هذا المقال حدود التجربة الديمقراطية التونسية وأعطابها كنظام للحكم وكعقيدة يفترض أن يتبناها المجتمع وتطور حول مبادئها جميع محاولات التنظيم ومساعي التغيير والتطوير في كامل المجالات.

أما في هذا الجزء فنسلط الضوء أكثر على الجامعة التونسية التي يفترض أن تكون المنبع الذي تخرج منه نخبة البلاد لتغدو الزاد البشري للمؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية للمجموعة الوطنية.

متى نتحدث عن جامعة ديمقراطية؟

الجامعة هي مؤسسة تعليمية لها نظام مستقل وقوانينهاكل تحكمها، تتكون من عنصرين أساسيين: طالب العلم والمدرّسون الذين هم موظفون صلب المؤسسة. وقد تطوّر مفهوم الجامعة والعلاقات التي تحكمها عبر العصور، مما سمح بتغيير كبير تقدّم كبير في أساليب طرح المعلومة وتحصيلها، حيث مالت نحو منح الطالب المتلقي هامشا أكبر من المساهمة في صناعة المعارف عوضا عن مراكمة المعلومات وإعادة تلقينها، وذلك من خلال ظهور مخابر البحث في العلوم التجريبية كما الإنسانيات وتمكين الطالب من المناقشة الحرة في المدارج وفي الندوات التي تنتظم في حرم الجامعة.

يمكننا الحديث عن جامعة ديمقراطية حين يكون للطرفين المذكورين أنفا أن يلعب كل من موقعه دورا (سياسيا) فاعلا داخل هذا المجتمع المصغّر، وأن يكون سلوكه في الأثناء تجسيدا للقيم العليا للديمقراطية، لعل أهمها الحرية والشجاعة في التعبير عن الرأي، واحترام الرأي المخالف، والتمثيل عبر الانتخاب والحرص على الفعل المباشر اللاعنيف:



بقلم: عماد قيده

مسؤول توزيع

بالشبكة العربية للأبحاث و النشر

imedn@hotmail.fr

تفرّخ الجامعة كل سنة

جيلا من الخبراء في شتى

المجالات، لكنهم يقعون

أناس سلبين لا يمكنهم

الدخول في أي مجادلة تقع

خارج تخصصهم



المصدر: nawaat.org

نفسه ذاتا فاعلة وقادرة على ممارسة قيم الديمقراطية انطلاقا من المدرج ووصولاً إلى الفضاء الأرحب للمجتمع، وذلك جنبا إلى جنب مع تحصيل المعرفة والدرجة العلمية للطلبة وتحقيق الارتقاء المهني والاجتماعي بالنسبة للمدرسين.

لمن تخضع الجامعة ولماذا؟

خلال تاريخ من النضال الطلابي والأكاديمي عموما، سعت الجامعة لنيل استقلاليتها الإدارية والمالية والهيكلية، إلا أنها نجحت بنسب كبيرة التفاوت، جغرافيا، وذلك في الفرق بين ما تحقق في بلدان الجنوب والشمال، وزمنيا، أخذا بعين الاعتبار الإخفاقات الكثيرة والانتصارات المتباعدة في الزمن، لعل أشهرها ما تمخض عن الحركة الطلابية في أوروبا والعالم سنة 1968.

وحتى في خضم ما اعتدنا على تسميته انتصارات، كانت الأنظمة السياسية تجد هامشا للالتفاف على المطالب الحقيقية من خلال ألعاب هيكلية وإعادة توزيع للأوراق، مستعملة في ذلك في أغلب الأحيان شقا من التأثيرين ضد الآخر، وهم الأساتذة والمجالس العلمية، الذي يستعان بهم إبان كل أزمة من ذلك النوع.

من الأمثلة على ذلك، كان أن ألغت الحكومة التونسية سنة 1968 الهياكل الجامعية التي كانت سارية وألحقت إدارات الكليات مباشرة بوزارة التعليم، قبل أن تعود إلى إرسائها خلال الاضطرابات الطلابية سنة 1986 حيث أوكلت مهمة امتصاص الزخم والحماض الإيديولوجي للأساتذة التابعين للحزب الحاكم كما لآخرين منتقلين إلى اليسار، من أمثال محمد الشرفي الذي تقلد كذلك مناصب متقدمة صلب الوزارة.

اتجهت السلطات الأوروبية نهاية السبعينات نحو ما سمي "مهنة" الجامعة، أي إعادة هيكلة الاختصاصات ودمج بعضها وحذف البعض الآخر بهدف ملأها مع متطلبات سوق الشغل، وبالطبع حذت جامعات تونس حذوها في ذلك حيث ظهرت العديد من الإصلاحات، التي صرنا اليوم نعلم أنها لم تكن ذات فائدة، وآخر تلك الإصلاحات كان تبني نظام أمد وبعث الإجازات التطبيقية والماجستير المهني وغيرها من التسميات التي بقيت عقيمة في مسعاها للتشغيل، في اقتصاد وطني هجين يشهدا عسرا شبه مزمن في التطور وتجديد نفسه.

ما هي التحديات الراهنة لميلاد جامعة ديمقراطية حقيقية؟

في تونس ما بعد 2011 خلت الجامعة التونسية من أي تحركات ذات تأثير للأساتذة الجامعيين، أرجعه البعض إلى غيابهم في الحراك الثوري في العام المذكور، إذ أن شريحة هامة ممن كانوا يدرسون في الجامعات التونسية كانوا من بين من تورطوا في إمضاء عرائض المناشدة المعروفة. وباستثناء بعض التحركات النقابية الجديدة مثل حركة "إجابة"، فقد كان الصمت ومواصلته الخنوع هو الموقف السائد بالنسبة لأكاديمي ما بعد الثورة.

وخلافا لذلك الخواء ما بعد الإيديولوجي الذي غرق فيه الأكاديميون، شهدت النقابات الطلابية نشاطا كبيرا تنوع بين الاحتجاج والتفاوض والتأثير، واصطبغ في أحيان كثيرة بأعمال عنف وتعطيل ممنهج لعمل الكليات والمعاهد العليا. لم تستوعب النقابات الطلابية هي الأخرى اللحظة الثورية، حيث أبقت على أساليب نضالية بائنة، كان من السهل على السلطة (ممثلة في مجالس علمية خانعة) احتواؤها عبر إعطاء مقاعد تمثيلية في المجالس العلمية لطلبة منتخبتين بطريقة بيروقراطية بالية، لا يتجاوز سقف نضالهم الحصول على أذن لإقامة تظاهرات مكررة وإنشاء نواد لا يحضرها أحد من الطلبة.

في السنين الأخيرة صار جليا للجميع ما تشهده الجامعة التونسية من تفريغ ذاتي لأي قيمة إنسانية من خلال إهمال الاختصاصات التي من شأنها مد المجتمع مستقبلا بكفاءات لها القدرة على تحليل الواقع والتدخل لتصحيح

نشازه، وشهدت إعلاء لشأن الشعب التقنية والعلمية التجريبية، وهي في ذلك لا تشذ عن المنطق النيوليبرالي الذي جعل من مؤسسة التعليم خادما طيعا لسوق الشغل بدل أن تكون فضاء للدرية على الإبداع والحرية والديمقراطية، وهنا نستحضر قول المنظر البريطاني تيري إيجلتون في مقاله المعنون "موت الجامعات": "إذا اختفى التاريخ والفلسفة وغيرهما من الحياة الأكاديمية، فما يبقى لدينا هو مجرد مكان للتدريب التقني أو معهد للبحوث. لكنها لن تكون جامعة بالمعنى الكلاسيكي للمصطلح، وسيكون من الخداع أن نسميها هكذا"³

أما عن اليد الخفية التي تدفع سنة تلو الأخرى نحو التوجه إلى الجامعات الخاصة، فمن قبيل التضليل إن لم نقل أنها نتاج لتحالف القوى التي أتينا على ذكرها أعلاه، ونقص قوى السوق وجهاز الدولة البيروقراطي، في سبيل جعل المعرفة سلعة مثل باقي السلع التي يعرضها السوق وتشجع الدولة على استهلاكها، وقد ظهر هذا التحالف بصفة سافرة ومرعبة بعد الإعلان عن نتائج التوجيه الجامعي الأخيرة (للسنة الجامعية 2021 - 2022) حيث وجدت أعداد هائلة من الناجحين في مناظرة البكالوريا نفسها بلا جامعات مستعدة لاستقبالهم، تحت حجة واهية هي تفاؤها بنسب النجاح العالية.

الهوامش:

¹ مجموعة مؤلفين، الجامعات والبحث العلمي في العالم العربي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، 2017.

² جولييان بيندا، خيانة المثقفين، دار الروافد الثقافية وابن النديم للترجمة، بيروت، 2020.

³ Terry Eagleton, "The death of Universities", The Guardian, 17 December 2010.

صار جليا للجميع ما

تشهده الجامعة التونسية

من تفريغ ذاتي لأي قيمة

إنسانية من خلال إهمال

الاختصاصات التي من

شأنها مد المجتمع مستقبلا

بكفاءات لها القدرة على

تحليل الواقع والتدخل

لتصحيح نشازه

إذا انتحر عبدٌ فلن يقع عتاب على سيّده:

قراءة في معاني الانتحار

إن المتتبع لنسق التاريخ ليرى مفارقة واضحة، تكمن في أنَّ الانتحار أحد أكثر الأفعال المشترك في نبذها أغلب الديانات والثقافات. وبالرغم من ذلك لكل مجتمع القدرة على خلق ضحاياه فتوجد باستمرار العوامل الدائمة لإفراز المنتحرين ونبذ فشلة المحاولين. وكأن التاريخ يكتفي بتمرير المبدأ الذي أقره مجلس آرل منذ 452 قبل الميلاد الذي ينص على أن "العبد إذا انتحر فلن يقع عتاب على سيّده". ولكن لم يقبل عبدٌ/شخصٌ/مواطنٌ/إنسانٌ على الانتحار أساساً؟

تتأق الحاجة إلى إعادة التفكير في دواعي الانتحار ومضامينه، مع تزايد عدد المنتحرين في العالم إذ صرحت منظمة الصحة العالمية أنه في كل عام يضع ما يناهز 800000 شخص نهاية لحياته، علماً أن أرقام حالات محاولات الانتحار أكبر من ذلك بكثير وتختلف من مجتمع لآخر بل وحتى من منطقة لأخرى، فبنية المجتمع هي التي تحدد القسط العددي لما يسميهم إميل دوركايم "الموتى الإراديين".

من الضروري التأكيد على أن الإحصائيات حول الانتحار نسبية لأنها تشمل فقط الحالات المُصرّح بها. ذلك أنَّ هذه الظاهرة تدرج ضمن "التابوهات" بل حتى أنَّ العديد من الحالات يتم مواراتها - اختياراً أو اضطراراً - خاصة إذا كان جنس المنتحر أنثى. وذلك يعود لعدة أسباب ثقافية واجتماعية وربما دينية ترسّخت في ذهن الجمعي لتؤكد على نبذ الانتحار الذي يُفسّره دوركايم على أنه فعل مرتبط عضوياً بمسألة الانسجام الاجتماعي للأفراد، وهو من جهة أخرى مؤشّر من خلاله يمكن فهم طبيعة المجتمعات وجذورها التاريخية.

في كتاب "الانتحار" الصادر عام 1897، خصّ دوركايم هذه الظاهرة بالدراسة والتقصّي، وهو عالم اجتماع ينتمي إلى المدرسة الوظيفية. وخلص إلى أنَّ الانتحار تتسبّب فيه قوة متجاوزة لقدرة الفرد. أي أنَّ الانتحار في صيغته المجردة هو إعلان موقف يتخذه الفرد ضد وضع اجتماعي بعينه، كما يُفسّره على أنه ترجمة لضعف التنظيم الفردي والجمعي، أي أن المجتمع فقد القدرة على حفظ أفرادهِ وتنظيم شؤونهم بشكل يجعلهم يواصلون الحياة.

دوافع الانتحار تتفرع إذن لما هو داخلي خاص بالفرد، وما هو خارجي أي يتعلّق بصلة الفرد بالمجتمع، وفي الحالتين هو إنذار للمجتمع ليتفطّن لوجود خطأ ما في النظام الاجتماعي. وهو نفس ما أكّد عليه عادل لطيفي بقوله أنَّ الانتحار حالة من القطيعة الراديكالية بين الفرد والمجموعة، مما يضع مختلف الأطر الاجتماعية والسياسية موضع شك. إذ هو نفي أو تحييد مؤقت، للعائلة وللدين وللدولة وللقانون.

ميّز دوركايم بين أربعة أصناف للانتحار: الأناني من أجل الفرد، والانتحار الإيثاري من أجل المجموعة، والانتحار القدري ويتجلى في المجتمعات القمعية، والانتحار اللامعاري عند اضطراب ضوابط المجتمع ويرتفع في فترات الكساد الاقتصادي. يُعدّ الانتحار اللامعاري الأكثر شيوعاً في وقتنا الحالي وفقاً لما يؤكّده تقرير المنظمة العالمية للصحة. تستأثر البلدان ذات الدخل المنخفض أو المتوسط بنحو 79% من حالات الانتحار في العالم. ويعتبر ابتلاع المبيدات، والشقن والأسلحة النارية من بين الأساليب الأكثر شيوعاً للانتحار على مستوى العالم.

حسب المنظمة العالمية للصحة، عادة ما تكون ظاهرة الانتحار مرتبطة بالأشخاص الذين يفقدون القدرة على مواجهة ضغوط الحياة، والمشاكل الأسرية، والعاطفية، والمالية، وبالذين يعانون من اضطرابات نفسية، أو أمراض مزمنة، أو حالات إدمان، وأيضاً بالأقليات المضطهدة.

أواخر 2010، من نار الانتحار انبثقت الثورة التونسية، التي أوقدها البوعزيزي مُعبّراً عن جوعه وعن رفضه للقمع والتهميش والحقرة وللتأكيد على فشل



بقلم: سها غابري

باحثة في مجال العلوم الثقافية

ghabri.souha7@gmail.com

»

الانتحار في صيغته

المجردة هو إعلان

موقف يتخذه الفرد

ضد وضع اجتماعي

بعينه

«



المصدر، لوحة "حرق الذات" لناتاليا أندروشيوا

الانتحار فعل تتقاطع
عنده المتضادات، فهو
يعكس تمرد الفرد على
المجتمع ويؤكد في نفس
الوقت مدى تأثير وسلطة
المجتمع على الفرد

لكون الفرد خاضعا لقيود المجتمع الذي يُسيّر حياته، ولكن هذا الفرد قادر بدوره على التحرر باستقدام الموت.

أكدت دراسة السلوك الانتحاري أنه قابل لحمل معان متجددة حسب المجتمعات والأزمنة، إذ يتراوح الانتحار ما بين مجرد فعل فردي يجسده الفرد الذي يشعر بأنه عالة على محيطه، حسب الفهم السيكولوجي، إلى فعل جماعي اجتماعي يتنزل في سياق المجتمع ويرتبط به. ولعلّ لانتحار الأفراد كذلك الفضل في ضمان حسن استمرارية الجماعة.

فرديا، بل تجاوزه إلى مفهوم الجماعة، حيث أكد المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية على أن أكثر من نصف حالات الانتحار أو محاولات الانتحار التي تم رصدها منذ بداية 2018، والتي بلغ عددها 72 حالة، "هي تهديد بانتحار جماعي أو محاولات انتحار جماعية".

الانتحار فعل تتقاطع عنده المتضادات، فهو يعكس تمرد الفرد على المجتمع ويؤكد في نفس الوقت مدى تأثير وسلطة المجتمع على الفرد. وهو ترجمان لخوف الأفراد من الأنظمة القمعية التي اعتادت تسيير امورها بالتسلط والترهيب، وهو في ذات الوقت تحد للخوف من خلال تحدي العقوبات القسوى التي يمكن أن تسلطها هذه السلط مثل التعذيب والإعدام والقتل... وهو على العموم تأكيد للعبودية وصك حرية: تأكيد

المنظومة في تحقيق التنمية. فتتالت بعد ذلك صيحات الاحتجاج للمناداة بالشغل والحرية والكرامة الوطنية بالتوازي مع تنالي حالات "الانتحار الاحتجاجي" لاسيما مع تردي الوضعية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والصحية.

إنّ الانتحار مرتبط أساسا بالجسد كفاعل انفعالي رافضا للواقع، ويتخذ هذا الجسد البعد الثوري عبر التعبير على الاحتجاج بالصراخ، الكلام، إضرابات جوع لتتطور وتصبح محاولات انتحار. فالانتحار حرقا يجسد صورة الجسد المنفعل الغاضب بفضاءات مختلفة.

ووفقا للمنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، الجسد هو المكوّن الأساسي للفعل الانتحاري، وهو الرأسمال الرئيسي للتعبير على الرفض والغضب. من أسبابه أنّ هناك بيئة وأرضية هيأت ووفرت ظروف الانتحار لكل الفئات العمرية، إذ اختلفت الفضاءات والوسائل ولكن الفعل واحد.

بعد الثورة في تونس لم يعد الانتحار قرارا

ابن خلدون والوعي بالتحويلات الحضارية الكبرى:

آثار الطاعون الأسود نموذجاً

بالإضافة إلى القلاقل التي كانت تثيرها من حين إلى آخر المجموعات البدوية والقبلية، دون أن ننسى ازدياد التفوق المسيحي عسكريا واقتصاديا في المتوسط الذي لم يعد بحيرة إسلامية كما كان زمن سطوة المسلمين بل إنه أصبح بحر اللاتين أو "ماري نوستروم Mare Nostrum" كما كان يسميه الرومان.

فمن ناحية أولى نرى أن ابن خلدون كان واعياً تمام الوعي بما خلفه الطاعون من آثار ديمغرافية مدمرة كان قد وصفها وصفا هيروشيمائيا حيث يقول "كانت أقرب منها إلى الفناء العام" وربما قد فتح الوباء عيني ابن خلدون على ما تمثله الديموغرافيا وقوة العمل من أهمية في حياة الشعوب وهذا ربما جانب من جوانب العبقرية الخلدونية. فربط الديموغرافيا بالعمل دليلاً واضحاً على وعي ابن خلدون بالعلاقة بين العمل والتقدم، فقد كان رائداً ربما في الارهاص والإيماء إلى مفهوم القيمة-العمل la valeur-travail حيث يقول "والأعمال هي أصل المكاسب وحقيقتها" كما يضيف "والأمصار القليلة السكان يقل الرزق والكسب فيها أو يفقد لقلّة الأعمال الانسانية" فثروة أي دولة إذن بالنسبة إليه لا تقاس بما تملكه من معادن ثمينة وبضائع وإنما بالعمل وبالزيادة في القدرة الانتاجية للبشر.

إذن بالنسبة لابن خلدون هناك ارتباط بين الطاعون الذي حلّ بالمغرب الإسلامي والأزمة التي أخذت تنهش جسد المخازن المغاربية الثلاث وعلى رأسها المخزن الحفصي في نهاية القرن الرابع عشر، كما يمكننا أن نفهم من خلال ما أورده ارتباط

المغرب الإسلامي في منتصف المائة الثامنة حيث أورد "وهذا ما نزل بالعمران شرقاً وغرباً في منتصف المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيف الأمم وذهب بأهل الجيل وطوى كثيراً من محاسن العمران ومحاسنها وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها فقلص من ظلالها وفلّ من حدها وأوهن من سلطانها وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أحوالها وانتقض العمران بانتقاض البشر، فخربت الأمصار والمصانع ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل وضعت الدول والقبائل وتبدّل الساكن وكأني بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب لكن على نسبه ومقدار عمرانها وكأني نادى لسان الكون في العالم بالخموم والانقباض فبادر بالإجابة والله وارث الأرض ومن عليها ..."

إذن بإمكاننا أن نستشف من خلال ما أورده ابن خلدون، تفتّنه إلى العلاقة بين كارثة الطاعون والتحويلات الحضارية الكبرى التي شهدتها آنذاك المخازن المغاربية والمتمثلة في أزمة شاملة قال عنها جاك بريك أنها "كانت من أسوأ العصور التي عرفتتها حضارات البحر الأبيض المتوسط" فقد تراجعت الفلاحة التي أصبحت "معاش المستضعفين" وانحسرت الحياة الزراعية، كما استشرى الفقر وعم الانحطاط والتخلف البنّي الثقافية والاقتصادية على حد السواء. هذا

إنّ المتأمل فيما خطّه ابن خلدون في المقدمة من أفكار ونظريات ورؤى سيدرك حتماً الوشائج العميقة التي تربطها بالواقع المغاربي في القرن الرابع عشر ميلادي، فما أورده ابن خلدون في هذه المدونة هو انعكاس لما كان يعتل في رحم المجتمعات المغاربية من تحولات سياسية وثقافية واقتصادية، وما رافق ذلك من أحداث صاخبة وكارثية استطاع من خلالها العقل الخلدوني الوعي ليس فقط بالأزمات التي فتكت بالمغرب الإسلامي والتي كانت لها تأثيرات على البنّي الديمغرافية والاجتماعية والاقتصادية، وإنما كذلك الانتباه إلى المنعطف التاريخي الخطير الذي وصفه بأنه "خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم مُحدث".

ولعلّ الطاعون الجارف، كما أسماه صاحب المقدمة أو الطاعون الأعظم كما ورد في بعض المصادر أو الطاعون الأسود كما كان يسمى في أوروبا الوسيطة آنذاك، يعدّ من أهم الأحداث التي فتكت بالبشرية في أواخر العصور الوسطى، وقد انتشر هذا الوباء الذي انطلق من منغوليا في كامل أقطار العالم.

وقد عاصر الشاب ابن خلدون هذه الجائحة الكونية التي أثرت فيه أيما تأثير حيث فقد فيها والده وأغلب الشيوخ الذين تتلمذ لديهم.

وقد ترك لنا ابن خلدون نصّاً عميقاً يكشف عن صورة قائمة لبلاد



بقلم: فهمي رمضاني

أستاذ مبرز في التاريخ

عضو الهيئة المديرية لجمعية تونس الفتاة

fahmi@tounesaf.org

»

بالنسبة لابن خلدون

هناك ارتباط بين

الطاعون الذي حل

بالمغرب الإسلامي

والأزمة التي أخذت

تنهش جسد المخازن

المغاربية الثلاث وعلى

رأسها المخزن الحفصي

في نهاية القرن الرابع

عشر

«

”

عصر ابن خلدون ربما كان
عصرًا منعرجًا، فإما الاقلاع
الحضاري ودخول العصور
الحديثة كما سيفعل
الغرب المسيحي أو النزول
إلى الهاوية والخروج من
التاريخ نهائيًا

“



المراجع

- ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمان بن محمد)، المقدمة، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1967.

- أومليل (علي)، الخطاب التاريخي: دراسة لمنهجية ابن خلدون، دار التنوير للطباعة والنشر، الرباط، 1985.

- الجابري (محمد عابد)، العصبية والدولة في فكر ابن خلدون، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1992.

- التيمومي (الهادي)، الغائب في تأويلات العمران البشري الخلدوني، دار محمد علي الحامي للنشر، صفاقس، 2007.

ودخول العصور الحديثة كما سيفعل الغرب المسيحي أو النزول إلى الهاوية والخروج من التاريخ نهائيًا وقد كان كما قلت ابن خلدون متشائمًا وحبذا لو كذب تاريخه تشاؤمه.

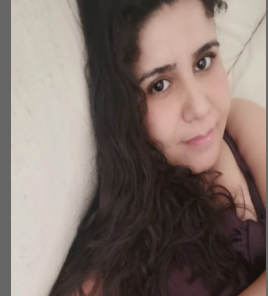
ألم يقل لتيمورلنك حينما عرض عليه الدخول في خدمته " لقد جئت متأخرا" ...

الطاعون بحركة التمدين والتعمير، فقد ساهم الطاعون في تراجع التمدين والعمران، وبالتالي تعميق أزمة المجتمع المغاربي ذلك أن هذا الوباء حسب ابن خلدون قد حل بالمغرب في فترة انحطاطه ودوله تتداعى إلى التلاشي وهذا يقودنا إلى الإشارة إلى أن ما أبرزه هذا الأخير يندرج تحت نظريته العامة عن الدولة. فعندما تقترب هذه الأخيرة من نهاية عمرها يكون ذلك مقتربًا بالفتن وبارتفاع النفقات العسكرية اللازمة لإخمادها كما يكون مقتربًا بأزمة اقتصادية شاملة تزيد من استفحال البؤس وانتشار الأوبئة حيث يقول في هذا الإطار "ثم أن المجاعات والموتان تكثر عند ذلك في أواخر الدولة وأما كثرة الموتان فلها أسباب من كثرة المجاعات كما ذكرناه أو كثرة الفتن لاختلال الدولة فيكثر الهرج والقتل أو وقوع الوباء"

هذه الصورة القائمة التي يرسمها ابن خلدون تؤكد وعيه بأزمة منتصف القرن الرابع عشر وربما الأكثر من ذلك وعيه ببداية أفول شمس الحضارة العربية الإسلامية وانتقال العالم الإسلامي "من حال إلى حال" على حد قوله.

فمن خلال ما أوردناه نلتمس بعض التشاؤم الذي أظهره ابن خلدون حيال الواقع الحضاري للعالم الإسلامي فتراجع الاقتصاد وانحطاط الثقافة وضعف المخزن وانتشار الأوبئة وتفوق العالم المسيحي كلها إشارات جعلت عقل ابن خلدون المتوقد غارقًا في القلق وما تنقلاته القلقة بين المشرق والمغرب إلا مثال ساطع عن ذلك. فعصر ابن خلدون ربما كان عصرًا منعرجًا، فإما الاقلاع الحضاري

المثقف على تخوم الجنون: قراءة في "دفاتر الوراق" لجلال برجس



بقلم: أسماء سحباني

أستاذة إنجليزية بالمعاهد الثانوية
متحصلة على الماجستير في الأدب الإنجليزي

asmasma82@gmail.com

رغم خيبة الأمل الأولى عند الإعلان عن فوز "دفاتر الوراق" لجلال برجس بالبوكر وتفوقها على "نازلة دار الأكابر" لأميرة غنيم والإحساس أنّ جلال برجس قد سرق جائزة مستحقة لتونس، فإنه عند قراءة لروايته قررت أنها ربما تستحق أكثر من جائزة البوكر. إن كانت رواية أميرة غنيم شديدة التجذّر في محيطها التونسي، فإن دفاتر الوراق تفتح آفاقاً لإعادة التفكير في أزمة المثقف العربي.

شراكة خطيرة تخرج عن طرفة الصفحات إلى أرصفة عمّان الجافة وتخلق عالماً موازياً قد يُسيل الدم حتى يفتك مكانه جنب الواقع. يقوم جلال برجس بالرجوع إلى رواد التجديد في بدايات القرن الفارط فيستعير من فيرجينيا وولف ومارسال بروس ترقية التداعي الحر. عندما يبدأ إبراهيم الوراق في الحديث أو الهذيان نذكر شخصية سبتيموس في السيدة دالواي. كلاهما لا يتوقف عن الحديث ويمتد هذيانهما على امتداد صفحات. الصدمة التي يسببها محيطهما حاضرة بقوة. كلاهما خسر حرباً وهو مجبر على التعامل مع مخلّقاتها.

يبدو أننا بصدد شخصيات تقودها الجغرافيا إلى حافة الجنون. الأزمة ليست أزمة هوية بقدر ماهي أزمة انتماء. ما هو الوطن بالنسبة لإبراهيم؟ هل هو خيمة في بادية لا يعرف سكانها ما يجري في القرى المجاورة حتى وإن كانت قضية توطئ غرباء وسرقة أرض؟ هل هو بيت العائلة حيث أحلام الصغير يدعسها الكبار ويعيدون تشكيلها دون اعتبار لرغباته ومشاعره؟ أم أن الوطن هو بيت مهجور ورغم نوثته وتداعيه يبقى أكثر أماناً من الشوارع المليئة بالبوليس؟

أو ربما الوطن هو القصص التي قرأها إبراهيم ووفرت له حبكة ووجهاً جديداً لكل هجوم. مصطفى السعيد والدكتور زيفاكو وأحدب نوتردام وسعيد مهران كلهم هربوا من الصفحات ليعيدوا الأمان والعدالة إلى مدن نخرها الفساد والظلم. لكن برجس فتح باب التخيل على مصراعيه حتى يتلعن الواقع المقرّف.

دفاتر الوراق هي ما يحدث عندما تهدم متجراً للكتب وتقيم مكانه متجراً لبيع الهواتف الذكية جهراً والمخدرات سراً. عندما قام إبراهيم الوراق بحرق كتبه لما طرده مالك البيت الذي يسكنه لعجزه عن دفع الإيجار، هربت الشخص من أوراقها وانطلقت في شوارع عمّان إلى البنوك أولاً حتى تحقق العدالة الاقتصادية ورجال الأعمال لاحقاً حتى تنتقم.

إبراهيم رجل يتيم الأب والأم. تبنته الكتب فأنست وحدته في البداية ثم أعطته سلاحاً قاتلاً فيما بعد. إنّ الألفة الشديدة مع الخيال تخلق

استعار برجس الشكل

ولكنه حتماً تجاوز

موضوع أزمة الهوية

وتعريف الأنا الذي

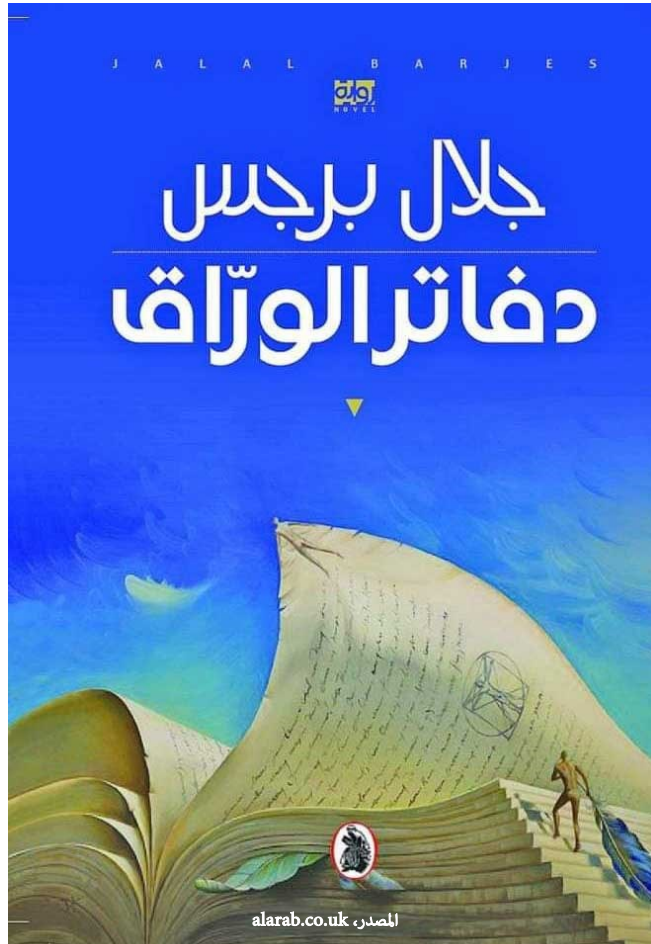
يُميز روايات القرن

الماضي

J A L A L B A R J E S

جلال برجس

دفاتر الوراق



اختار سبتي موس الانتحار ليهرب من هذيانه ومن الحطام الذي خلفته الحرب في نفسه ولكن الوراق يكسر الحائط بين الواقع والخيال. يرى الهدف فيعيد الحق إلى أصحابه ويرى المجرم فيريق دمه ويحقق انتقامه.

رواية جلال برجس رواية كلاسيكية شكلا تخضع لأسس الحكمة التقليدية للرواية. يفتتح إبراهيم الرواية هادئا ليقدّم لنا عائلته وبيته وخسارته لمتجره. تتسارع الأحداث بتسارع نبضات قلبه كلما انتفخ بطنه وسمع الصوت يأمره بالأخذ بزمام الأمور والبدء في الانتقام. تتداخل الأقاصيص والأصوات ليتحول بائع الكتب إلى روبن هود معاصر يسرق البنوك ليطعم اليتامى. يعود الهدوء رويدا رويدا مع انكشاف هويات غامضة وعلاقات متشابكة. وينتهي حيث ينتمي في مصحة عقلية، لتكتمل الدائرة القصصية في حبكة محكمة.

جلال برجس "صناعي" كما نقول في اللهجة التونسية. لا مكان للمغامرة فعالم ما بعد الحداثة عالم مفكك كثيرة أبوابه والتيه فيه سهل. لا ينبغي لديوجين أن يبقى تائها. كل شيء يجب أن يصير حسب الخطة المقررة تماما كخطة إبراهيم الوراق. الأسس القوية تفتح آفاقا واسعة

ومجنونة. بعصر النهضة؟ هل يظن أن حمل

النهضة يقع على عاتق رجل مجنون؟

برجس مثقف غير متعال على محيطه. كتب رواية شاهدة على العصر وحمل الريشة على ظهره فأثقلته. إن حمل المثقف ثقل ولكن نهاية الدرب خفيفة كخفة كائن يطير. عبّر برجس عن ذلك بنسخ لوحة الرجل الفيتروني ليوناردو دافنشي في موضع من غلاف روايته. فهل يحلم برجس

برجس مثقف غير متعال
على محيطه. كتب رواية
شاهدة على العصر وحمل
الريشة على ظهره فأثقلته



جمعية تونس الفتاة

الهاتف: 29797625

البريد الالكتروني: contact@tounesaf.org

الموقع: www.tounesaf.org

فايسبوك: facebook.com/tounesalfatet

تويتر: twitter.com/tounesalfatet

انستغرام: [@tounesaf](https://www.instagram.com/tounesaf)